اجتهادات
المالُ حينَ يطغى

لا يُصدقُ كثيرون اليوم أن الإنسان يكونُ أقوى كثيرًا حين يستغنى. فقد أفسدت الرأسماليةُ فى مرحلتِها الأشد توحشًا حياة البشر. ولم يعد المعنى العميقُ للاستغناء مفهومًا فى الأغلب الأعم, بعد أن أزاحته أنماطُ الحياة الراهنة إلى هامشٍ ضيقٍ قليلاً ما نجدُ تجلياتٍ له فى عالم اليوم. فقليلُ فى هذه المرحلة من يستطيعون الاستغناء عن أشياء لا يملكونها، أو لا يريدونها، أو ليست لديهم ولا تُغريهم فى آن معًا. قلةُ تقلُ كل يومً إلى أن تجرى فى نهر الحياة البشرية مياهُ أخرى.

نجحت الرأسماليةُ لأسبابٍ لا يتسعُ لها المجالُ اليوم فى تغيير أنماط الحياة، وأنساق القيم فى مختلف المجتمعات، فأصبحت العلاقاتُ بين البشر قائمةً على تبادل المصالح والمنافع بمعزلٍ عن الجوانب الإنسانية، وصارت قيمةُ الإنسان مرتبطةً بما يملكُه، وطغى المالُ على كل شىء فجرَّد معظم البشر من إنسانيتهم، وبات الحصولُ عليه بأى وسيلةٍ فوق كل القيم.

ولهذا تراجعت القدرةُ على الاستغناء صونًا لكرامة الإنسان من أن تُمتهن فى مجرى صراعٍ مُنفلتٍ من الأخلاق والمعايير، وحفاظًا على إنسانيته من أن تتردى فى سياق جريه وراء المال وانغماسه فى سياقٍ لا نهائى من أجله.

كان هذا الموضوعُ ضمن النقاش مع طالب الدكتوراه محمود سيد عبد الرحمن، الذى زارنى قبل أيامٍ لمعرفة رأيى فى بعض جوانب مشروع مفهومًا تحليليًا Reification أطروحته التى يتخذ فيها من التشيؤ

رئيسيًا لدراسة تأثير الرأسمالية المالية على العلاقات العائلية، انطلاقًا من فرضياتٍ أبرزُها أن هذه العلاقات باتت تتسمُ بطابعٍ آلي أو ميكانيكي يفتقدُ الحميمية وتغيبُ فيه الروح، وتعلو فى ظله أسوارُ بين أفراد الأسرة المشغول كل منهم بنفسه، إلا القليلُ الذين يقلون مع الوقت. وأقلُ هؤلاء من يستطيعون الاستغناء سواء عن التطلع إلى حياةٍ أكثر راحةٍ أو رفاهية، أو عن حياة رغدٍ يولدون فيها، ويجدُ الواحد منهم كل شىء بين يديه.

وخلال حديثنا استعدتُ فى ذهنى سيرةَ شخصياتٍ كانت نموذجًا للاستغناء إلى حد يبدو خياليًا لمعظم البشر اليوم، وتشتدُ الحاجةُ بالتالى إلى زياراتٍ جديدةٍ لتاريخهم وحياتهم وإسهاماتهم.